

مُسْتَقْبَلُ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ فِي الْعَالَمِ

الأستاذ: محمد بن اسماعيل

ترجمة الأستاذ: محمد محمد الخطاطي

كما أنه يصعب أن ندرك أن العالم العربي الذي هو مقسم سياسيا بصفة متبادلة ليس لكل بلد منه لغة رسمية خاصة تتميز عن لغة البلاد الأخرى . فإلى أي طور وصلت اليوم لغة هذه البلدان وهل من الممكن أن تتخلص اللغة العربية الحديثة وما يتبعها من لهجات من هذا الضباب الكثيف المحيط بها ؟

من العربية الفصحى إلى « العربية المفرنسة »

يرى البعض — ونحن متفقون معه — أن اللغة العربية — حسب ما هي مستعملة في البلدان العربية — تتميز بصفة عملية بثلاث مظاهر ممثلة في درجات ثلاث هي كما يلي :

أولا : العربية المكتوبة والمقروءة وهي لغة المدارس والادارات والتأليف الأدبي والعلمي والخطب

بواجهنا — في مجال الحديث عن اللغة العربية — مظهران لغويان اثنان ، فنحن نجد أنفسنا أحيانا أزاء لغتين ، يطلق على الأولى — بصفة عامة — لغة فصحي أو أدبية ، ويطلق على الثانية لغة الحديث اليومي (أي العامية) . وتحصى هذه الأخيرة بالأجمال بعدد البلاد التي لها صلة بالعربية وهي عادة معرضة لنزوة لا يضاهيها إلا الجهل المتفاوت للغة الفصحى ، وكثيرا ما يكون هذا التضاهي في سائر اللغات .

إن العالم مقسم اليوم إلى كيانات سياسية تستعمل في كل منها بصفة رسمية لغة معينة غير أنه من الصعب أن ندرك أن سكان الولايات المتحدة الأمريكية يستطيعون التكلم باللغة الإنجليزية وأن سكان بلجيكا لا يتحدثون البلجيكية وأن نسبة كبيرة من سكان سويسرا يتكلمون اللغة الفرنسية .

- (1) نشر هذا المقال في مجلة (Jeune Afrique) عدد 799 ، 30 إبريل 1976 .
- (2) أستاذ مبرز في الآداب ، وصاحب منهاج حديث لتعليم اللغة العربية للأوربيين — والمسئول عن برنامج التكوين الدائم في جامعة باريس 8 .

السياسية ، ، الخ وهى مستعملة بصفة عامة فى سائر وسائل الاعلام والتبليغ .

ثانيا : العربية « العامية » وهى لغة العلاقات اليومية المستعملة على الاخص فى الاوساط الشعبية وينبغى أن نرى هل هى موحدة فى كل بلد على حدة ثم على صعيد الوطن العربى كله .

ثالثا : اللغة العامية المينة بالدخيل الاجنبى خاصة من اللغات الغربية — وهى على العموم — أكثر اللغات استعمالا لدى الطبقات المثقفة والمتوسطة المتخرجة من المدارس الانجليزية بالنسبة للمشرق او الفرنسية بالنسبة للمغرب وفى هذه الحالة كثيرا ما يتخلل هذه اللغة تعابير بل وجمل تامة بالانجليزية او الفرنسية ، وتستعمل هذه اللغة بطريقة عفوية ويسدون مراعاة للقواعد النحوية . ويجرنا هذا الى التفكير بكيفية هامة لما يسمى بالفرانجلى (FRANGLAIS) أى للتعبير عن كثرة الدخيل الانجليزى فى الفرنسية وقد يقال فى هذه الحالة كذلك (ARANGLAIS) او العربى (ARAFRANCAIS) للتعبير عن نفس الغاية فى كل لغة .

اننا نلاحظ أن العمال المغاربة فى فرنسا او حتى فى شمال افريقيا (ومعظمهم اميون) يستعملون فى كلامهم العادى — بصفة تلقائية — مجموعة من الكلمات او التعابير محرفة تنحدر أساسا عن اللغة الفرنسية ، فنحن نجد عندهم مثلا الاسبوع (Semaine) يتحول الى (Smana) والغرفة (Chambre) تتحول الى (Chambri) والفندق (Hôtel) يصبح (Outil) ، والبطالة (Chômage) تغدو (Chaumage) ولعبة سباق الخيل المعروفة (Tiercé) ينطقونها (Tirsi) وهكذا ، ، ويضاف الى هذا التحريف اللفظى عند المتكلمين الذين لهم الهمام كاف باللغة الفرنسية الأخطاء التى مردها الى تغيير طبيعة الاسماء فى التكثير والتانيث ، فنحن نجد مثلا أن نسبة كبيرة من الاسماء المذكورة فى الفرنسية هى مؤنثة فى اللغة العربية ، لذا فليس غريبا أن يؤنث هذا العامل كلمة Avion (الطائرة) وهى اسم مذكر فى الفرنسية ، وكذلك Chaise (الكرسي) المؤنثة فى الفرنسية فيذكرها ، كما أنه يؤنث (الشمس) Soleil وهى مذكر فى الفرنسية كذلك وهكذا . ويرجع سبب ذلك كما سبق القول الى اختلاف طبيعة هذه الاسماء فى اللغتين . كما أنه من الملاحظ فى حالة عدم اعتبار الجملة الاسمية التى ليس لها نظير دقيق

بالفرنسية واعتبار أن الفعل فى العربية يسبق الفاعل فى الجملة الفعلية على الرغم من هذا الخلاف فمن المستطاع أن تتطابق البنيتان الفرنسية والعربية .

عربية الفد

اللغة العربية قاسم مشترك بين الدول العربية جميعا وهى تزداد فى الوقت الراهن — عمقا وتتحدا يوما بعد يوم ، ويرجع الفضل فى ذلك الى عوامل متعددة ومتطورة باستمرار لها أهميتها الكبرى وتأثيرها البالغ فى توحيد هذه اللغة ، فما هى إذن هذه العوامل ؟ يتعلق الامر — فى المقام الاول — بمسألة استحداث المدارس الجديدة التى تنمو وتتكاثر تكاثرا مدهشا وعليها فى جميع البلاد العربية والتى يعلم فيها — على الاقل — المواد اللغوية الصرف والمصادر الادبية ويتم ذلك التعلم — بطبيعة الحال — بواسطة الفصحى ، وتجدر الإشارة هنا الى أن العامية لم تقص بعد بصفة مطلقة من المدارس الابتدائية غير أنه ليس لهذا الاثر العامى أى اثر لا سيما وأن هذه المدارس تقصد أساسا الى تعليم القراءة والكتابة اللتين يتمان بواسطة الفصحى .

ويتعلق العامل الثانى بأهمية الدور الذى اخذت تضطلع به العربية الفصحى يوما بعد يوم فى البلدان العربية ، وعلى الصعيد العالمى وهو يتركز على التطورات الاقتصادية والوثبات الجبارة التى يرجع سببها فى هذا المجال الى الثورة البترولية بصفة خاصة وما تجلبه من عائدات وأرباح هائلة ، ولا يستطيع عالم اللغة — تبعا لذلك — أن يصدر حكما تقييما بصدد هذا المصدر المسهم فى تطور اللغة العربية وانتشارها فى العالم وانها قصارى ما يمكنه فعله بشأنه هو الإشارة الى هذه الظاهرة من غير التحمس لها او الاتلال من قيمتها ، ويبقى الامر أمرا لغويا يعود لاسباب سياسية واقتصادية لا ينبغى اغفال أثرها فى هذا المجال .

لقد أصبحت اللغة العربية لغة رسمية فى كثير من المنظمات الدولية — ولاسيما — فى اليونسكو بجانب اللغات الكبرى الاربع : الانجليزية ، والروسية ، والاسبانية ، والفرنسية ، ولئن كان الغربيون ، والفرنسيون من بينهم ، كانوا يعتبرون العربية فيما مضى من جملة اللغات الميتة ولم يهتموا الا قليلا بتدريسها فانها أصبحت الآن عندهم محل اهتمام زائد وصار الناس منذ بضع سنوات يميلون الى تعلمها والتعرف عليها والانتفاع بها .

بين الشعوب ، والارتفاع الشبه العام للمستوى المعيشي للسكان ، كل ذلك سيساعد ولاشك على ارتفاع المستوى الثقافي في هذه البلدان جميعا .

كل هذه الظواهر تحمل على التفكير بأن العوامل الثلاثة المبينة اعلاه متجهة بسرعة نحو التقارب فيما بينها لتصبح في النهاية امرا واحدا .

ان الاجيال الجديدة من ابناء العروبة في مختلف البلدان العربية لم يعيشوا تحت السيطرة الفرنسية او الانجليزية ولكنهم شاهدوا الاضمحلال المتفاوت السرعة لهذه السيطرة . وهؤلاء سيجدون انفسهم مهينين لاستعمال لغة مشتركة فيما بينهم ويمكن ان نشاهد هذه الظاهرة الآن في سائر البلاد العربية بما فيها الجزائر التي عرفت الحضارة العربية بها حالة حصار دام اكثر من قرن من الزمان ، حتى كاد يقضى عليها الى الابد وحيث بقيت اللهجة البربرية ثابتة بالرغم من كل ذلك .

ويبدو وجود اللغة متى وقع الاتصال في اطار منطق مزدوج من نمط صوتي ، ويقوم توحيد اللغة على تحقق الاتصال . انطلاقا من هذا التعريف يتأتى لنا القول بأن وجود لغة واحدة موحدة لاريب فيه ، وهذه اللغة المشتركة تشكل نموذجا راسخا في الاذهان بصفة تجعله ينفذ باستمرار الى بناء الجمل السداجرة متى ارتفع مستوى الحديث شيئا ما فوق ظروف الحياة العادية .

نحو لغة موحدة

على أن هناك مجالا من الاهمية بمكان تتراكم الصعاب فيه يوما بعد يوم دون أن نستطيع الزعم بأننا سنجد لها حلولا ناجعة وهو مجال المصطلحات الذي لا يزال في الواقع عبارة عن ارض بور على ان هناك جهودا صادقة تبذل في هذا المجال وهي ذات اتجاهين اثنين . يمثل أولهما في نشاط المجامع اللغوية وخاصة مجمعي القاهرة ودمشق (3) اللذين بذلا وما زالا يبذلان جهودا طيبة في هذا الميدان . وبجانب هذا العمل ينمو

ان الدور الذي أصبحت تلعبه اللغة العربية في عالم اليوم وخاصة في العالم الغربي وهو الذي كان نبذا نبذا سيسهم حتما في تطويرها والرفع من قيمتها واستقرارها التدريجي كما سيساعدها على فرض نفسها كلفة دولية بعد أن عم شيوعها سائر البلاد العربية واعترف لها بصفاتها الدولية اعترافا دوليا .

اما العامل الثالث من هذه العوامل الثلاثة فانه يتمثل في هذا التداخل والتبادل القائم منذ أعرق العصور بين البلدان العربية واللذين أصبحا يتحسان اليوم بسرعة بفضل تطور وتعدد وسائل المواصلات بالإضافة الى مسألة توطيد العلاقات من كل نوع بين هذه الاقطار التي تزداد يوما بعد يوم ، غير أنه على الرغم من أن هذه الدول تشكل كيانات سياسية متميزة فانها ما تزال تعاني — في بعض الاحيان — من خلافات واصطدامات عنيفة فيما بينها ولغة التخاطب والتفاهم الرئيسية في تلك العلائق جميعا هي بطبيعة الحال اللغة العربية الخاضعة لقواعد نحوية محكمة في حالة الكتابة او المتميزة بنبرات صوتية خاصة في كل بلد عربي حسب الانتحاء الجغرافي للمتكلم بها ، غير أنه لا يصعب فهم هذه النبرات في أي بلد عربي .

وهذا امر طبيعي ، فاللغة الانجليزية مثلا لا يتحدث بها في بريطانيا العظمى مثلما يتحدث بها في الولايات المتحدة الامريكية . كما ان الفرنسية لا تستعمل بصفة ماثلة في فرنسا وبلجيكا وسويسرا وكندا الفرنسية . والامثلة متعددة في هذا المجال ، ليس غريبا إذن ان نلاحظ في البلدان العربية بعض الخلافات اللسانية في حالة التنقل من بلد الى آخر .

وتزداد أهمية هذا العامل الأخير اذا علمنا حجم الدور الذي أصبحت تلعبه المدرسة وانتشارها الواسع بين الطبقات الشعبية نتيجة للسياسة التي تنهجها الدول العربية في ميدان التعليم بعزيمة كبيرة في محاولة اللحاق بالعصر وتعويض ما فاتها في هذا المضمار كما أن انتشار وسائل التعبير والتبليغ وسهولة مداولتها

(3) يلاحظ ان الكاتب قد أغفل هنا ذكر مجمع بغداد الذي لا ينكر أحد الجهود المحمودة التي بذلها وما يزال في خدمة المصطلح العربي على وجه الخصوص ، كما ان الكاتب أغفل كذلك ذكر مكتب تنسيق التعريب التابع للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم الذي يضطلع بهذه المهمة اساسا منذ أزيد من خمسة عشر عاما (المترجم) .

نشاط لا بأس بفعاليته وإن كان غير منظم وهو ما تقوم به الصحف والمجلات ومختلف اللقاءات والندوات التي تعقد بشأن اللغة العربية .

المثال — الذي يسمى في تونس قنطرة نجده في كل من دمشق والقاهرة يقال له « جسر » للتعبير عن نفس الدلالة وإن كان اللفظ معروفا معرصة تامة في المدن الثلاث .

أما مسألة اختلاف المسميات وتباينها بين بلد عربي وآخر فليس له أي أثر على مسيرة اللغة العربية . فحتى لو سمى شيء في تونس بغير ما يسمى به في القاهرة فإن كلا الاسمين عربيان ومعروفان إن لم يكونا شائعين في جميع البلاد العربية . فالجسر — على سبيل

تلك أمثلة بسيطة أحببت الإشارة إليها وكما أشرت سابقا فإن توحيد اللغة العربية — الذي هو سائر نحو التحقيق — سيقضي شيئا فشيئا على الخلافات القائمة والتي ستصبح مع الأيام ضئيلة جدا إن لم يبق لها أثر يذكر على الإطلاق .

